Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ذلك الزلزال الكوني المدمر الذي ينفجر في الحياة فيحولها إلى ذرات متطايرة ترتحل في الزمان والمكان بصورة مستمرة . لا أريد أن أقول إن المتنبي كان يدرك طبيعة ذلك الاحساس الوجودي بالارتحال الدائم والفقد المستمر . ولكنه – على وجه اليقين – كان يشعر به شعوراً حاداً . ولعل هذا البيت الرابع الذي يصور الزمان في حالة تحرك دائم يشكل مع البيت الأول الذي يصور الزمان في حالة تجمد ، المحور الذي تدور حوله فكرة أبي الطيب عن الزمان . وهي لا تبعد كثيراً عن الصورة الدقيقة لفكرة العلماء عن الزمان ، فلا شك أن نسبية الزمان هي التي تشعره بهذا الطول والتشابه في لياليه الذي يحس به في البيت الأول ، لأنه يسقط شعوره الداخلي على الليالي . كذلك إحساسه الحاد بالموت الذي يتتابع فيه الظعن والارتحال الدائم هو الذي يظهر في البيت الرابع . ويمكن أن نتتبع نسبية الزمان في هذه القصيدة كلها ، لنرى كيف يمكن للنفوس الشاعرة أن تصل إلى أعمق المعاني التي لا يصل إليها العلم إلا بعد أعوام طوال . وعلى أية حالٍ فلنرجئ هذا التحليل إلى الحديث عن فكرة الزمن . ولكن هذه الفكرة تغمر هذه اللوحة وتحدد إطارها العام . وهذا ما جعلني أسميها « لوحة الزمن » وأعتقد أن الفكرة لم تقتصر على هذا المشهد ، فقد ظلت تتردد بصورة أو بأخرى في كثير من مشاهدها كما سنرى . ولعل هذه الفكرة هي التي أعطتها كل هذه الحيوية . وهذا « الإشعاع الفني » الذي يتجلى في انسجام إيقاعها وعذوبة سياقها . والتئام أفكارها . وتوحد نسيجها .

ويلفت النظر في نهاية هذا المشهد هذا البيت الذي يقول فيه :

ألم يـر هـذا الليـل عينيك رؤيـتي فتظهـر فيـه رقـة ونحـول

فظاهر البيت يشير إلى ما عاناه المتنبي من آلام بسبب ظعن حبيبته ، وما قاساه من هموم أصابت جسمه بالرقة والنحول . ولكن المتنبي في الحقيقة لم يكن مهموماً بسبب غياب الحبيبة ، وإنما ضمر جسمه ونحل ورق ، من كثرة ارتحاله في سبيل المجد . ولعله تذكر – في لحظة من لحظات التوهج الروحي – كل أسفاره ، وتخيل نفسه يطارد حلمه الكبير . ويجري وراءه في سرعة كبيرة . وتمنى لو صنع هذا الليل الطويل الجامد الساكن الممل صنيعه ، إذن لرق ونحل . وأصبح نحيلاً ضئيلاً ... ونحن لا نمنع أنفسنا – ما دمنا بصدد الحديث عن الزمن – من أن نفكر في تلك المعادلة التي تقرر أن الأشياء والكائنات كلما زادت سرعة تحركها ، كلما انكمشت أكثر . ولو تحرك ليل المتنبي بسرعة الضوء لانكمش تماماً واختفى